مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 29، أكتوبر 2021، ص - ص: 667 – 688
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

استراتيجية السياسة الفرنسية في محاربة المقومات الثقافية وهدم المؤسسات الثقافية والدينية في الجزائر (1830-1870)

Strategy of French policy to fight against cultural factors and the destruction of cultural and religious institutions in Algeria (1830-1870)

طالب الدكتوراه فوزي السايح أ.د/ علي غنابزية[1]
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة الوادي
مخبر بحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي
ghenabzia-ali@univ-eloued.dz faouzisayah39@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/10/23 تاريخ القبول: 2021/04/13

الملخص:
يدرس هذا المقال المرحلة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر(1830-1870)، في إطار التاريخ الثقافي، الذي يهتم بالمقومات الثقافية، والتي تعرضت للاعتداء، وفق استراتيجية فرنسية رُسمت منذ الأيام الأولى. وتجلّت مظاهر السياسة الفرنسية المتبعة في محاربة الدين الإسلامي، ونشر المسيحية، إيجاد نواة النخبة الموالية، ومحاربة الثقافة العربية الإسلامية، ونشر الفرنسية، ومنافسة اللغة العربية والتضييق عليها، ونهب التراث العربي الإسلامي. إضافة إلى هدم المؤسسات الثقافية الأصيلة، وهي المساجد والمدارس والمعاهد، وزوايا العلم، والأوقاف الإسلامية. وتبعها ردود الأفعال الوطنية، التي تصدت للسياسة الفرنسية، وعرقلت بعض مخططاتها.
والجدير بالذكر أن الحرب التي استهدفت الهوية رغم شراستها في هذه المرحلة، فإنّها مهّدت للمستقبل الذي يمكن مقارنته بما سبق حتى نتبين مراحل التشويه التي مست الهوية، والتي مازالت بعض آثارها ماثلة إلى اليوم في حياة الجزائريين، ولها صور أخرى للنضال من قبل الوطنيين.
الكلمات المفتاحية: التاريخ الثقافي؛ النخبة؛ المؤسسات الثقافية؛ استراتيجية؛ التراث.

Abstract:
is article examines the first phase of the French occupation of Algeria during (1830-1870), within the framework of a cultural history which looks at the cultural components which were attacked according to a French strategy planned since the early days. The manifestations of French policy of fighting the Islamic religion, spreading Christianity and creating a nucleus were evident. The loyal elite, the fight against Arab-Islamic culture, the spread of French, competition and restriction of the Arabic language, and the plunder of Arab-Islamic heritage. In addition to the demolition of the original cultural institutions represented in mosques, schools, institutes, corners of knowledge and Islamic endowments, which led to the emergence of national reactions which confronted French politics and hampered some of his plans.

And who's to be noted here is that the war which aimed at identity despite its ferocity at this point, it paved the way for a future which can be compared to what has been mentioned previously so that one can see the stages of distortion that have affected identity and whose effects are still present today in the lives of Algerians and have other forms of struggle on the part of Patriots.
Key words: cultural history; elite; cultural institutions; strategy; heritage.

[1]- المرسل المؤلف.

مقدّمة:

تقوم المجتمعات على قيم ومبادئ، وترتكز حياة أفرادها على مقومات ثقافية لها روح دينية منسجمة مع ذاتها، وحامية لشخصيتها من الذوبان والاضمحلال. وقد عاش المجتمع الجزائري قديما تحت نير الاستعمار الأوروبي ولا سيما الروماني، ولكنه تحرر من ظلمه وطغيانه، وتمكّن الشعب من إقامة مجتمع أصيل في ظل الإسلام دينا، واللغة العربية لسانا، وتصدى بهما قرونا عديدة لكل القوى المتربصة.

ولكن البلاد وقعت مرة أخرى تحت الاستعمار الفرنسي سنة 1830، والذي لم يكتف طوال الحقبة التي سيطر فيها على البلاد، باستغلال الأرض، ما فوقها وما تحتها، واستعباد الإنسان، وتسخيره في شتّى الميادين، بل تعدّى بأسلوبه الميكيافيلي برسم استراتيجية تهدف إلى محاربة وهدم المقوّمات الثقافية للمجتمع الجزائري، التي كان يرى فيها القوة الرئيسية، والقاعدة المتينة التي يرتكز عليها، ليتمكّن في مرحلة أولى من فصل المجتمع الجزائري عن امتداده الحضاري العربي الإسلامي، وليصل في مرحلة ثانية إلى فرض حلوله الكثيرة وتطبيق سياساته المتعدّدة، لأنهّ يدرك تمام الإدراك أنّه في ظل وجود المؤسسات الدينية والمراكز الثقافية التي يستمد منها الشعب الجزائري مقوّماته الثقافية، ستكون حاجزا قويا ومانعا كبيرا أمامه من أجل تحقيق أهدافه التي جاء من أجلها.

وما يؤكّد أنّ المستعمر مدرك لأهمية كل المقوّمات، وخاصة الثقافية منها، وشدّة تمسّك الشعب الجزائري بها، ما ورد في البند الخامس من وثيقة الاستسلام الموقّعة في 05 جويلية 1830، إذ تعهّد فيها قائد الحملة ـ بشرفه ـ أن لا يقع مساس بالشعائر المحمّدية، ولا يقع أي مساس بالحقوق وبحرّية السكان ودينهم.

أبعاد الإشكالية:

لقد صاحب الاحتلال الفرنسي للجزائر سلوك شديد الوطأة على السكان، باستباحة الأعراض، والاعتداء على الأخلاق، ومخالفة الأعراف الإنسانية وقت الحروب، ولم يكن سلوكا عابراً، بل تواصل، وكشف عن استراتيجية مبرمجة عن وعي من قادته، وسياسة لها خطوات وأهداف ومقاصد، تجلت في محاربة المقومات الثقافية العربية الإسلامية (الدين، اللغة، التراث)، والاعتماد على سياسة هدم صرح المؤسسات وإعدام التراث. بشتى الوسائل والأساليب. والسؤال المطروح هنا هو: **ماهي الاستراتيجية التي اتبعتها فرنسا في محاربة وهدم المقوّمات الثقافية الجزائرية من 1830 إلى 1870؟** وما مدى تأثير السياسة المرسومة على الجزائر؟ وما هي المظاهر التي تدلل على ذلك؟ وكيف كان رد الجزائريين، وما هي مواقفهم، وهل بدأت الحركة الوطنية مبكراً مع الهجمة الأولى؟ وكيف واجه المجتمع تلك السياسة، وما هي درجة صموده في وجه الغطرسة الفرنسية؟

أهداف الدراسة:

إن دراسة وضعية المقومات الثقافية في المرحلة الأولى للاحتلال، والتي دامت أربعة عقود (1830-1870) تستدعي الدراسة المتأنية، لبلوغ الأهداف التالية:

ـ رصد الحالة الدينية والثقافية في بداية الاحتلال وما أصابها من محن في شخص حراسها من العلماء والمفكرين، وما خلفه الاحتلال من دمار وخراب مس المراكز العلمية والدينية.

ـ التعرف عن دور المؤسسات الثقافية والدينية في الجزائر، والمعاناة التي عاشتها من جراء السياسة الفرنسية التي تعمدت التغافل عن عهودها المضروبة والموثقة.

ـ التنبيه بالأدلة والبراهين التاريخية إلى السياسة الفرنسية المسطرة وفق استراتيجية أكيدة، كانت آثارها شديدة التأثير على المجتمع الجزائري، ونخبه الثقافية والعلمية والدينية.

ـ الكشف عن ردود الفعل الوطنية، والتنويه بدور القيادات التي برزت في حينها، وتكيفت مع الواقع الجديد والذي اقتضى التصدي للحرب الموجهة للهوية، وحتم عليها رفع لواء المقاومة الثقافية، وهذا يتطلب التنبيه إلى دورها في ولادة الحركة الوطنية الجزائرية مبكرا.

منهج الدراسة:

لقد فرض هذا البحث حول التاريخ الثقافي في عهد الاحتلال، منهجا تاريخيا، يستجلي الجوانب السياسية والعسكرية وهي أساليب البطش والتنفيذ، والتي لها تأثيرها على القضايا الثقافية والاجتماعية في بعدها العقائدي والديني. فاستدعى ذلك استقراء الأحداث التاريخية، والوقائع الثابتة، وتتبع مواقف وأقوال وتصريحات قادة الاحتلال، والساسة الفرنسيون، وتم ترتيبها جميعا في نسق متكامل مع التحليل تارة والنقد كلما تطلب ذلك المقام.

الدراسات السابقة:

لعل الدراسات في هذا المجال ارتبطت كثيرا بالقرن العشرين، باعتبارها الفترة التي اتسع فيها نطاق الحركة الوطنية، وتبلورت نشاطاتها في الأحزاب والتيارات السياسية والاصلاحية، وخضعت الاستراتيجية الفرنسية إلى مراجعة وتطوير. بينما الفترة الأولى للاحتلال، فالأمر مختلف تماما، ويحتاج إلى دراسات دقيقة. ولهذا تم الاعتماد على دراسات متنوعة، درست جوانب من الموضوع، فضلا عن تصريحات قادة الاحتلال أمثال كلوزال وبيرتزين وبيجو والدوق دومال، ومواقفهم المعلنة ومعاركهم التي انعكست سلبا على المؤسسات الثقافية. كذلك كتابات رواد المدرسة التاريخية الجزائرية المقاومة وهم عثمان خوجة وتوفيق المدني وعبد الرحمن الجيلالي، ولكن مؤلفات الأستاذ أبو القاسم سعد الله تتقدم تلك الدراسات لدقتها، واتباعها المنهج العلمي الواضح.

محاور الدراسة:

أما عناصر الدراسة، فشملت أربعة محاور كبرى، استوعبت جل القضايا والأحداث المطروحة، ومنها:

ـ تحديد ماهية المقومات الثقافية، بداية من الخلفية التاريخية التي عرفتها عند الفرنسيين وكيف تعاملوا معها لأول مرة عند حملتهم على مصر في القرن الثامن عشر. وتلاها ضبط المصطلحات وتعريفها، وتمثلت في الدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية.

ـ أما المحور الثاني وهو استعراض لكيفيات محاربة الفرنسيين للدين الإسلامي ونشر المسيحية، واستقطاب الأعوان من الجزائريين، والاعتداء على القضاء الإسلامي. ومحاربة الثقافة بالتضييق على اللغة العربية ونشر الفرنسية، والاستيلاء على التراث.

ـ أما المحور الثالث، فكان حول سياسة الهدم والتخريب للمؤسسات، من مساجد ومدارس، وزوايا العلم والأوقاف الإسلامية.

ـ وكان المحور الأخير حول مقاومة الجزائريين للسياسة الفرنسية عن طريق المقاومة الشعبية المسلحة والمقاومة الثقافية والتصدي لهدم المساجد أو تنصير المجتمع وتعليمه الثقافة الفرنسية.

أوّلا: تحديد ماهية المقوّمات الثقافية:

أول عقبة واجهها الفرنسيون هو الاصطدام بالمقومات الثقافية الأصيلة

في الجزائر، وهي أشد خطرا عليهم من باقي الأسلحة المادية، ويقتضي المنهج العلمي تحديد المفاهيم والمصطلحات وخلفياتها التاريخية.

أ ـ الخلفية التاريخية للمقومات الثقافية:

تعتبر الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، بداية الاستراتيجية الفرنسية في التعامل مع بلدان العالم الإسلامي، وإلى جانب الاحتلال العسكري المشترك، خاض الفرنسيون معركة فكرية ثقافية، لها فوائدها في النهضة العربية، ولكن أثرت على المجتمع المصري وثقافته ذات الجذور الإسلامية. وأول عمل قام به نابليون في مصر، هو اصدار العديد من المنشورات باللغة العربية، معلنا بها صداقته للسلطان العثماني، وبيّن سبب قدومه لمصر، من أجل تحقيق العدل والحرية والمساواة، وختم أول منشور بالدعاء للسلطان والعسكر الفرنسي[1].

وأول ما بدأ به نابليون، هو نشر المفاسد والخمور والخنا، والثقافة الفرنسية في الانفتاح، وفي المقابل كان يظهر أنه مسالما، يتودد للعلماء والأشراف ويقربهم من مجالسه علانية، ويؤكد لهم أنه يحترم الإسلام، وادعى أمامهم أن الرسول ﷺ ظهر له في الرؤيا، فطلب منه نابليون أن يمهله عاما ليعتنق الإسلام ويبني مسجدا كبيرا. ولكن تلك المراوغة ـ بالوقوف إلى جانب الثقافة المصرية ـ سرعان ما انكشف أمرها، وظهر نابليون بسياسته الاستعمارية، عندما أمر جنوده باقتحام المسجد الأزهر، وعاثوا داخله بحوافر خيولهم، وضربوا مآذنه بالمدافع ولاسيما بعدما أعلن المؤذنون الجهاد من فوق مآذن المساجد في كل مكان، وصار المصريون ينظرون إلى إصلاحات نابليون على أنها إفك وضلال[2].

ولما عزمت فرنسا على توجيه حملتها للجزائر، لا شك أنها استفادت من تاريخ نابليون، وعلى نهجه أرسل قائد الحملة ديبرمون أول بيان للجزائريين، والذي وزع قبل غزو البلاد، وأشعرهم فيه بأنهم لم يقدموا للجزائر إلاّ لتحريريهم من "الاستعمار التركي"، ووعدوهم باحترام حياتهم وأملاكهم، ودينهم ومقوماتهم الحضارية[3]، ومما ورد في نص البيان: (... ثم إننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا حقيقيا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عليه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم فإن حضورنا عندكم ليس لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم (كذا) الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء)[4]. ولكن الحملة العسكرية كانت عنيفة على السكان وممتلكاتهم، وآلت الأمور إلى توقيع الداي حسين لوثيقة الاستسلام، والتي تعهد فيها القائد ديبرمون، بالحفاظ على ممتلكات السكان، ومقوماتهم الثقافية والدينية، ومما ورد صراحة دون تلميح في الوثيقة المقصودة: (... تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن ينال من حرية السكان وجميع الطبقات، ولا من دياناتهم، وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم، أي ضرر. وستكون نساؤهم محل احترام. إن القائد العام يتعهد بشرفه على احترام ذلك...)[5]. ولكن ظهر ـ وفي وقت قصير ـ أن الاستعمار بعيد عن الشرف، وأول من ينتهك العهود والمواثيق، مع التنكر للدين الإسلامي وشعائره في الجزائر. وأشاد القائد الفرنسي بجنوده الذين فتحوا بابا واسعا للمسيحية في الجزائر، ونصروا الصليب على الهلال، وبعد يوم واحد من إمضاء المعاهدة، أي 06 جويلية 1830، أمرهم بتنصيب الصليب في أعلى بناية في القصبة، وفي حفل مهيب، وأقيمت الصلاة المسيحية في الساحة الرئيسية للقصبة[6].

والجدير بالذكر أن الجزائر عرفت ثقافة أصيلة منذ عصورها الزاهرة في ظل الدول الإسلامية المتعاقبة عليها، والعهد العثماني الذي دام أكثر من ثلاثة قرون، والتي حافظت البلاد على مقوماتها الحضارية. ولما غزتها فرنسا، استهدفت كيانها الحضاري، مما دفع المجتمع الجزائري إلى التصدي للهجمة الفرنسية الظالمة، وكانت المقاومة الثقافية أمضى سلاح وأهمه في المعركة المصيرية.

وتمثلت المقومات الثقافية في الفترة ما بين (1830-1870) في ركيزتين أساسيتين، هما الدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، بما فيها من التراث المادي وغير المادي.

ب ـ ماهية المقومات الثقافية:

قبل الشروع في دراسة المقومات الثقافية، يقتضي المجال، التعرف عن معانيها وأهميتها في المجتمع الجزائري، حتى نحدد، لماذا قام المستعمر بمحاربتها، وهدم مؤسساتها وقلاعها الحصينة والتي حافظت على الشخصية الوطنية للجزائريين؟

1ـ **الدين الإسلامي:** منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط (الجزائر) صار الدين الإسلامي هو الدين الخالد، والدعوة إليه من أبرز الخطط التي انتهجها الفاتحون، حتى ترسخ الدين في القلوب والنفوس، وأحبوه بصدق وإخلاص، وجعلوه محور حياتهم عندما " تعلم السكان مبادئ الدين والعربية، وحفظوا القرآن، وبنو المساجد فأكثروا..."[7]. ولما كانت الجزائر تحت الحكم العثماني، سعدت بإسلامها، الذي نظم حياتها وأحوالها الشخصية، وعاشت المؤسسات الثقافية والدينية في حرية كاملة، فلم تتأخر السلطات عن تشجيع مشاريع البر والإحسان، من تشييد المساجد والمدارس، وإجراء الأوقاف الإسلامية عليها، وتقريب العلماء لتولي المناصب الهامة، وتوجيه المجتمع، وكان" رجال السلطة ... يتملقونهم ويستجلبونهم إليهم ويخشون بأسهم ويسمعون نصائحهم وبها يعملون"[8]. وهذه المحافظة على الدين كانت محل انتباه من الفرنسيين منذ الوهلة الأولى.

ولكن وبعد الجهود الحثيثة للمفكرين الأوروبيين وعلى رأسهم المستشرقين، أيقن الاستعمار أنّ قوة المسلمين تبدأ من دينهم، فهذا الملك الفرنسي لويس التاسع (1214-1270) والذي عرف بالقديس، بعد فشله في حملته الصليبية على المسلمين في مصر، أوصى أتباعه بتغيير فكر المسلمين، والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض. وهكذا تحوّلت المعركة من ميدان الحديد والنّار إلى ميدان الفكر[9].

وضمن هذا التوجّه عارض النفوذ الفرنسي مقوّمات الإسلام والثقافة العربية في الجزائر مقاومة ضخمة وبأساليب بعيدة المدى في الفصل بين الجزائريين ودينهم، وكذلك القضاء على القرآن كمصدر للتشريع، فقد ظلّ الإسلام هو العامل الأقوى في الحفاظ على الشخصية العربية المسلمة، كما يقول (جاك بيرك) " لولا الإسلام لفقدت الشخصية الجزائرية ذاتيتها، لأنّ ضغط الاستعمار ومفاسده كان يمكن أن يؤدي إلى إذابة الشخصية الجزائرية"[10].

2-الثقافة العربية الإسلامية: كانت الثقافة العربية راسخة في الجزائر منذ الفتح الإسلامي، وأصبح اللّسان العربي هو لسان الجزائريين، وانتشر بين أبنائه بل وحافظ عليها عبر القرون التالية، وأسهم أبناء الجزائر في إغناء التراث العربي الإسلامي بمؤلفات كثيرة علمية وفقهية وأدبية...واتصلت الجزائر بالأندلس والمشرق، فأنشأت مؤسسات ومدارس ومعاهد علمية وثقافية في الجزائر ووهران وتلمسان وبجاية وقسنطينة...فكانت مصدر إشعاع علمي وثقافي باهر[11].

وكانت الثقافة في الجزائر، تتميز بالطابع الإسلامي، وتوحد بين جميع الجزائريين، الذين يشعرون بانتمائهم القوي لبلد واحد، وليس المقصود بالطابع الإسلامي للثقافة، المحتوى الديني المعروف، بل (هو المحتوى الحضاري، بما فيه من تعليم وتنظيم ثقافي وقضائي وعلاقات اجتماعية وفكرية. وقد شهد عدة فرنسيين، شاهدوا الجزائر في فترة الاحتلال بأن الأمية كانت منعدمة تقريبا في الجزائر)[12].

لذا أدرك المحتل أنّه ليس من السهولة بمكان تقويض ثقافة مجتمع متأصلة فيه منذ أزيد من 12 قرنا، فانكبّ على دراسة العربية الفصحى، فوجد أنّها مرآة حضارته وثقافته، لغة القرآن والتشريع، والعلم، والسياسة، والعمل، والفلسفة، والأدب، والفن، وبعبارة أخرى لغة الدين والدنيا، وهو ما يعيق التأسيس لمشروعه الثقافي، لذا جاءت هجمته شرسة على اللغة العربية الفصحى[13]، والثقافة الإسلامية العريقة.

وهذه المقومات المختلفة، كانت صمام الأمان، ومرتكز المقاومة المستمرة والفعالة، والوقود المحرك الذي يدفع المجاهدين في ساحات الوغى، ويبعث فيهم روح الجهاد، وطلب الشهادة على هدي آبائهم وأجدادهم، وهذا الذي دفع الفرنسيين أن يحاربوا الدين الإسلامي وثقافته بيد قوية، ودون هوادة، فكيف تم ذلك؟

ثانيا: محاربة المقوّمات الثقافية:

كانت ميادين الحرب التي خاضها الفرنسيون ضد قيم المجتمع الجزائري، متعددة العناصر، وشملت محاربة الدين الإسلامي، بنشر المسيحية، ومحاربة القضاء الإسلامي، إضافة إلى محاربة الثقافة العربية الإسلامية، ونشر اللغة الفرنسية على نطاق واسع.

1- محاربة الدين الإسلامي: كانت الاستراتيجية الفرنسية مركزة على الدين الإسلامي، ومحاولة اقتلاعه، وسلوك شتى السبل، واعتماد مختلف الوسائل والأساليب، ومنها:

أ- نشر الدين المسيحي: إنّ عودة الكنيسة إلى الحياة السياسية في عهد شارل العاشر، سمحت للإرساليات التبشيرية بنشاط في فرنسا وخارجها، وساعدت على خلق جو ديني، انعكست آثاره على احتلال الجزائر عام 1830. واتضحت تلك الآثار في الطّابع الديني الذي اكتسته الحملة الفرنسية، والنزعة الصليبية التي اتصف بها المحتلون[14]، حينما قاموا بالمراسيم المسيحية من رفع الصليب وترتيل الإنجيل، في مدينة الجزائر، إيذانا منهم بالعزم على نشر المسيحية في الجزائر. وقد درس المبشرون العالم الإسلامي من جميع نواحيه، ثم وضعوا الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة فيه، في كل ناحية من تلك النواحي، لقد استغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة، من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية ومن الثقافة والأدب واللغة، وحرصوا على أن يسلبوا الإسلام كل مناحي الشخصية وكل أسباب الحياة[15]. ولفهم المشروع التنصيري في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، يمكن التمييز بين ثلاث فترات مرّبها هذا المشروع:

الفترة الأولى: تمتد من سنة 1830 إلى سنة 1845، والتي تميّزت بمجيئ عدد كبير من الجمعيات التنصيرية، وتأسيس الأسقفية بالجزائر.

الفترة الثانية: تمتد من 1846 إلى سنة 1866 وتميّزت بمجيئ الأسقف (بافي).

الفترة الثالثة: وهي الفترة الأكثر أهمية، لأنّها كانت تعتبر بمثابة تتمة الاحتلال العسكري، والتي تبدأ من سنة 1867 أي منذ تعيين الكاردينال لافيجري (Lavigerie) إلى غاية وفاته في 26 نوفمبر1892[16].

ففي الفترة الأولى حرص المنصّرون في الجزائر على تمسيح الوسط قبل تمسيح الرّوح، وقد تمّ ذلك عن طريق المحو الكلي أو الجزئي للمظاهر الدينية الإسلامية في المجتمع الجزائري، إضافة إلى بناء الكنائس التي تعمل على نشر التعاليم المسيحية[17]. وحينها نشط الأسقف دبّوش (Depuch)، والذي ترك منجزات كبيرة ما بين (1839 – 1846)، لا يمكن إنجازها لولا المساعدات التي كانت تأتيه من هنا ومن

هناك، ومنها مساعدات الحكّام في الجزائر ممثلي الدولة الفرنسية، ومن تلك الإنجازات: بناء 60 كنيسة ومعبدا و 16 مؤسسة دينية (وبعض هذه المباني كانت مساجد حُوّلت)، ووظف 91 قسيسا و 140 إطارا من النّساء والرجال في الشؤون الدينية، وانشأ ملجأً للأيتام وحلقة درس للتأثير في السكان[18]. واعتمد دبّوش (Depuch) على العمل الخيري، وعبّر عن ذلك بقوله: "يجب أن تكون رسالتنا بين الأهالي، فينبغي علينا أن نعرّفهم بدين أجدادهم الأوّلين من خلال الخدمات الخيرية"[19].

أمّا الفترة الثانية، كان خليفة الأسقف دبوش (Depuch) في النشاط التبشيري الأسقف لويس انطوان بافي (L.Antoine Pavy) الذي حلّ بالجزائر يوم 10 جويلية 1846[20]، والذي عَمِل على فتح حصن سانتاكروز بوهران سنة 1850، كمعبد جديد تحت اسم "سيدة الخلاص"، ووضع في سنة 1854، الحجر الأساسي لكنيسة السيدة الإفريقية بالعاصمة في أعلى نقطة من جبل بوزريعة المُطل على البحر، ووسّع من كاتدرائية سان فيليب[21]، ومن النشاط الذي كان يقوم به أيضا الطعن في الإسلام، ويتفق المؤرخ "بورنيشون" مع الأسقف في ذلك حين قال: "ولتجزئة الكتلة الإسلامية ،لا بد من تنظيم خاص، وجيش من الرجال، إذ ينبغي وقبل كل شيء تعلّم اللغة العربية، عن طريق تكوين مدرسة دينية لتقوم بهذه العملية الكبرى"[22]، ولم يكن التعليم التبشيري الموجّه للجزائريين منتشرا على كامل أرجاء البلاد، بل كان في مناطق معينة، خلال الفترة المدروسة (1830-1870)، وهذه المناطق هي منطقة جرجرة، ومنطقة الأوراس(الشاوية) بالهضاب العليا، ومنطقة وادي ميزاب (بنو ميزاب) بالصحراء الجزائرية[23].

لقد تركّز اهتمام المبشرين بسكان المناطق المذكورة لاعتقادهم بأنهم سوف يحققون نجاحا ملموسا في عملهم التبشيري بين سكانها، واستندوا في اختيارهم لسكان هذه المناطق إلى حجتين هما:

أصل السكان: فجرجرة والأوراس وغيرهما، روّجوا مقولات، مفادها أنّ الأمازيغ هم السكان الأصليون للجزائر، وبالتالي فهم ليسوا عربا، وهذا إذن أحد العوامل التي ستسهّل عملية فصلهم عن باقي سكان البلاد وتنصيرهم بسرعة.

لغة السكان: لاحظ المبشرون بأنّ تعامل هؤلاء السكان فيما بينهم، لا يتم باللغة العربية، وهذا أيضا عامل آخر يمكن أن يستغل لإبعاد سكان هذه المناطق عن اللغة العربية دون أدنى صعوبة[24].

أما الفترة الثالثة ، فتولاها الكاردينال لافيجري (Lavigerie) مكان الأسقف بافي (Pavy) على الأسقفية بالجزائر في أواخر سنة 1866، ويعتبر لافيجري (Lavigerie) أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثّرت بعمق في فلسفة التبشير وطبعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتّى الميادين، وتمثّل سنوات (1868-1892) قمّة التبشير في الجزائر وإفريقيا، وقد كان القرآن والإسلام في نظره أشد عدو للمسيحية، وأنّ واجبه يفرض عليه محاربتهما ...فالقرآن شريعة (الكذب واللا أخلاق)، وتتم محاربتهما عن طريق تنصير المسلمين، ويتم هذا التنصير بوسيلتين، الأعمال الخيرية التبشيرية، وإنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان[25].

ب- إيجاد فئة من الجزائريين موالية لفرنسا: أمام إصرار المجتمع الجزائري وتمسك أفراده بالقيم الإسلامية، سعت إدارة الاحتلال بشتى الطرق على إيجاد فئة تخلص لفرنسا، وتكون عونا لها في إدارتها. وقبل أداء المدرسة الفرنسية لدورها في هذا المجال، اعتمد الماريشال بيجو ومستشاره ليون روش، بأخذ أطفال الجزائريين إلى فرنسا بالقوة، وإبقائهم مدة يتعلمون الفرنسية، ويعيشون مع الفرنسيين، ليكتسبوا الثقافة الفرنسية. وعند عودتهم لبلادهم، يندمجوا في وسطهم ويكون لهم التأثير الاجتماعي. وشرع بيجو في ذلك عام 1943، بعد الاستيلاء على زمالة الأمير عبد القادر، فأخذ الأطفال دون العاشرة إلى باريس، وبقي متواصلا مع المسؤولين على تدريبهم. ومنهم أحمد بن قدور بن رويلة كاتب الأمير، والذي تولى بعد عودته

مهمة الترجمان العسكري الاحتياطي، ثم صار مساعدا ملحقا بالمكتب العربي بقصر البخاري. وكذلك علي الشريف الزهار الذي وظف مترجما عسكريا احتياطيا، وصار جنديا في كتيبة الصبايحية ومستشارا عاما في مجلس ولاية الجزائر[26].

وقد تسند الوظائف الدينية للشيوخ الذين سبق لأبنائهم التأثر بالثقافة في فرنسا، وهذا الذي حدث للمفتي المالكي في الجزائر مصطفى القديري الذي انتخب في المنصب سنة 1843، خلفا لمصطفى بن الكبابطي المعارض لفرنسا. وقد طلب القديري تعيين ابنه عونا له (كاتبا)، فأصبح الولد مساعدا لوالده، لأنه تمكن من لغة الفرنسيين وثقافتهم في مرحلة سفره. [27] ثم شرعت في استقطاب فئة أخرى، لتكوين النخبة الموالية لها، عن طريق التجنيس الفردي، وجعلت من شروطه التزام الولاء المطلق لفرنسا، وخدمتها بإخلاص، وإتقان لغتها. ولم يحصل على المواطنة الفرنسية في المرحلة ما بين 1865-1874 إلا عدد ضئيل لم يتجاوز 458 متجنسا، والسبب هو رفض المجتمع لهذه الفئة، واعتبار صاحبها مرتدا عن العقيدة والدين[28].

ج- محاربة القضاء الإسلامي: يعتبر القضاء الإسلامي أحد مقوّمات وجود واستقرار المجتمع الإسلامي الأساسية، يستمد أحكامه وقيمته من القرآن العظيم والسنّة الشريفة، واجتهاد العلماء، لذلك رأت فرنسا في هذا القضاء مصدر قوة وعامل تماسك المجتمع والأسرة الجزائرية، فضلا عن اعتبار الجزائر بلدا مهزوما يجب أن تمحيَ نظامه القضائي، فعَمِلت على إضعافه وتفكيكه تمهيدا للقضاء عليه[29]، ومن أجل محاربته استخدمت فرنسا عدة وسائل للتأثير على القضاء الإسلامي وإخضاعه، فاستخدمت المكاتب العربية والمحاكم الفرنسية، وإلغاء القانون الجنائي الإسلامي(أي تطبيق الحدود) في المناطق الخاضعة للاحتلال، وتطبيق القانون المدني على الجزائريين في المناطق المدنية، وأصدرت جملة من المراسيم أهمها:

مرسوم 16 أوت 1832 القاضي بإمكان استئناف أحكام القضاة المسلمين الجِنحِية والجنائية الجزائية أمام المحاكم الفرنسية، ونقل صلاحيات الحكم في القضايا الجزائية بين المسلمين واليهود من القضاة المسلمين إلى المحاكم الفرنسية[30].

وكان تدخّل السلطات الفرنسية في مسألة القضاء الإسلامي يتم على مراحل، ففي سنة 1834 عمدت السلطات الفرنسية إلى إلغاء القضاء الإسلامي الشرعي ببلاد جرجرة البربرية، بدعوى أنّ البربر يريدون الاحتكام إلى العُرف، أي إلى قوانينهم الوضعية التقليدية، لا إلى القرآن الكريم[31].

أسّست الحكومة في بلاد القبائل خطّة القاضي الموثّق، وهو قاض لا يحكم بين النّاس، إنّما يسجّل الوثائق العامة المختصة بالمعاملات، فهو عبارة عن عدل فقط، ويقوم بتنفيذ الأحكام التي تصدرها المحاكم الفرنسية، وتوجد مراكز قضاة التوثيق في دائرة الجزائر، ودائرة تيزي وزو، ودائرة بجاية، ودائرة سطيف[32]، وابتداء من 1841 انتزع الحكم في الجنايات والجنح من أيدي القضاة المسلمين وحوّل إلى قضاة المحاكم الفرنسية، وذلك باستئناف المتقاضين عندها إذا أرادوا[33].

استغلّت السلطة الفرنسية ميدان القضاء لمحاولة جعل منطقة القبائل تختلف في تشريعاتها وقوانينها عن المناطق الأخرى، ومن العوامل التي ساعدت على ذلك العادات والتقاليد المحلّية، والتي كانت منافية للشّريعة الإسلامية في جوانب منها، ومن ضمن هذه الخصوصيات التقاليدية عدم توريث المرأة[34]، إلى جانب مجمع يسمى "تاجماعث" وهو مجلس في منطقة القبائل، ينظر في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية، ويُلقّب رئيس المجلس بأمين الأمناء، ويعتبر أيضا بمثابة رئيس القرية[35]، وهذا المجمع يصدر القوانين وينفّذها، ورغم صدور قانون 31 ديسمبر 1859 المتعلّق بالأحكام الإسلامية، إلاّ أنّ هذا المجمع استمر في أداء مهامه.

وفي أيام نابليون الثالث (1852-1870) الذي كان يريد تأسيس المملكة العربية بأرض الجزائر، صدر قانون 01 أكتوبر 1854، فنظّم القضاء الإسلامي تنظيما جديدا وقسّمه إلى مناطق، ثم ألغى الاستئناف إلى الدائرة الفرنسية[36]. ومرسوم 31ديسمبر1859 الذي أرغم الأهالي على التقاضي لدى القضاء الفرنسي والمحاكم الفرنسية، فأصبحوا يتخوّفون أكثر على مستقبل شخصيتهم الإسلامية القومية وعزا الفرنسيون ثورة الأوراس عام 1859 إلى هذه الإجراءات القضائية التشريعية؛ وفي العام 1866 قرّر نابليون الثالث منح القاضي المسلم صلاحيات مدنية في جميع الشؤون، مع ترك المجال مفتوحا للمسلمين إذا أرادوا التقاضي أمام المحاكم الفرنسية[37].

2- محاربة الثقافة العربية الإسلامية: كان بيرتزين حاكما عاما للجزائر في بداية الاحتلال (مارس 1831-ديسمبر 1831) فراسل الماريشال "سولت" بتاريخ 1831/07/25 قائلا: (إن جهلنا للغة والاختلاف في الدين، كانا من أكبر العوائق التي لا يمكننا تجاوزها)[38]. فكانت استراتيجية الاحتلال معدة لمحاربة عناصر الثقافة الإسلامية الثلاث (الدين واللغة والتراث المكتوب):

أ- التضييق على اللغة العربية: تعتبر الكتابات الفرنسة، أنّ اللغة هي حجر الأساس عند الأمم، وأنّ التأثيرات الخارجية، وعظمة أو انحطاط الشعوب، وتجاذب وتنافر الأجناس ينعكس فيها كما لو كان في مرآة[39]. واللغة العربية لها خاصيتها المميزة عن غيرها من اللغات قاطبة، لأنها ارتبطت عضويا بالقرآن الكريم، وتستمد شواهدها وعباراتها من آياته ومن السنة النبوية، وهي محتوى منسجم مع روح الدين الإسلامي، ولا يفرق الجزائري بين اللغة والدين في شيء، ويرى أي منافسة لغوية أخرى هي ضرب من الوهم الذي يحاربه بكل قواه، ويرفضه جملة وتفصيلا، لأنه يصده عن قيمه ومبادئه الأصيلة.

وقد شن الاستعمار حربا ضارية على الثقافة العربية الإسلامية وعلى رأسها اللغة العربية، بالتضييق عليها من كل النواحي، ومنها:

- غلق المؤسسات التعليمية، ونفي العلماء والمدرسين وتشريدهم أو وضعهم في غياهب السجون، واختلاق الأسباب الواهية لذلك.
- تشجيع التعليم المختلط، وفسح مجال الحرية للغة الفرنسية، ودعمها بكل الإمكانيات المادية والمعنوية، واستقطاب الجزائريين، وإدماجهم بكل المغريات حتى يكونوا ألسنة تلهج بالفرنسية على حساب لغتهم الأصيلة.
- وضع المساجد تحت الرقابة، لأنها مصدر العربية، ولم يسمح فيها بالتدريس إلا في نطاق محدود ابتداء من سنة 1851، ووفق تنظيم خاص للمدرسين فيها والعلماء العاملين[40].

ويوضّح مصطفى الأشرف أنّ الذي أضر بالعربية بعد الغزو الاستعماري ليس هو انخفاض المستوى، بل هو نوع العلاقة القائمة بين الغالب والمغلوب، والمنطق الذي بُنِيت عليه تلك العلاقة. إنّ الذي أضر بها هو حرمان النّاس من حريتهم وزوال مكان اللغة، كأداة للتعبير الرسمي، والاضطراب الشديد الذي حصل في الوسط الاجتماعي والاقتصادي، ذلك الوسط الذي يوفر للغة أسباب النّماء والتطور[41]. وهذا جعلهم ينشرون الفرنسية على أوسع نطاق ممكن.

ب- نشر وتشجيع اللغة الفرنسية: إن نشر اللغة الفرنسية لم يكن هدفا في حد ذاته، بل مرحلة ممهدة لانغراس بذور الفكر والثقافة الفرنسيتين في عقول الجزائريين، مرتبطين لغويا وفكريا وعاطفيا بفرنسا، بعد إزاحة "الجدار الصلب" المتمثل في الدين، والتي تشكل اللغة العربية الفصحى الإسمنت المسلح له، ومن هنا يأتي

الإلحاح على دور المدرسة كونها العنصر الوحيد للتقدم وإشاعة الفرنسية خصوصا في مرحلة التعليم الابتدائي[42].

واستعملت المدرسة لتثبيت أقدام الاستعمار، وفي الأخير إدماج الجزائر في فرنسا، ومحاولة بلوغ هذا الهدف عن طريق استعمال المدرسة كأداة للفرنسة، وغرس القيم المستمدة من الحضارة الفرنسية، وفي هذا الصدد ورد تصريح الدوق دومال، قال فيه "بناء مدرسة أحسن من فيلق عسكري لإقرار الأمن"[43]، وفي فضاء المدرسة (البيئة المدرسية) وفي لغة التدريس تتم عملية تلميع الثقافة الفرنسية في أعين أبناء الأهالي، وإظهارها كأداة للثقافة والتحضّر، وعنوان التمدن والعمران، ومن ثَمّ على الناشئة التخلّي عن لغتها وثقافتها وتُعَلّم لغة المستعمر وتشرّب ثقافته كي تتحضر[44].

وأضحت اللغة الفرنسية هي لغة الإدارة، واقتصر مجال العربية على المحاكم الشرعية، لأنّ الضرورة تلح عليهم في تسجيل الأحوال الشخصية[45]. وإلى جانبها تم محاصرة اللغة العربية في المعاهد والمدارس الفرنسية، فكانت تدرس بشكل محدود، وهي سياسة ذر الرماد في العيون[46]. "وقد أسس الاستعمار مدارس لتعليم الناشئة الإسلامية لغته وعوائده وأخلاقه، والباعث على ذلك لا التثقيف كما يفهم من ذلك، وإنما لفهم كلامه في العمل وقضاء المصالح، ولكي يتخلقوا بأخلاقه وعوائده ولينسلخوا من الإسلام ولغته وأخلاقه وعوائده..." [47]. ويضاف إليه الاعتداء على التراث العربي الإسلامي في مختلف الميادان.

ج- سياسة الاستيلاء والنهب للتراث العربي الإسلامي: كتب حمدان خوجة عما عاشه من هجمة شرسة على التراث بمدينة الجزائر في الأيام الأولى للاحتلال، قائلا: (لقد أمر السيد الجنزال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيصرية كانت تبيع الكتب التي هي أدوات الحضارة، والتي تنير طريق الإنسان المثقف، وفيها كان يوجد الناسخون لأن المطابع معدومة في إفريقيا. وبما أن الفرنسيين كانوا ينوون إدخال الحضارة إلى إفريقيا فلماذا وقع تهديم هذا المصدر الذي يعطي العلم والمعرفة في جميع الميادين؟). ولكن الهدف معروف، ينم عن الهمجية التي اشتهر بها الجيش، إضافة إلى الروح الانتقامية، ويستطرد حمدان خوجة واصفا سياسة الحاكم الفرنسي: (إن هذا السلوك يدل على أن هذا الجنرال، بدلا من أن يعمل على تزويدنا بنور العلم والحضارة كان ينوي إغراقنا في الظلمات والجهل)[48].

والجدير بالذكر أن الجزائر كانت تتوفر على مخطوطات كثيرة قبل الاحتلال، في مكتباتها العامة، وفي المساجد والزوايا، أمّا مكتباتها الخاصة فكانت منتشرة عبر الوطن، لدى العائلات العلمية، والأعيان الذين لهم غيرة على الكتب ونسخها، وكانت العائلة الواحدة تتوفر على بضعة آلاف من المخطوطات النادرة والتي كانت في حالة جيّدة[49]. وكانت مكتبات مدينة الجزائر في مساجدها بها نفائس المخطوطات، ومنها مكتبة الجامع الكبير التي تجاوزت أربعين ألف مجلد، ومكتبة جامع كتشاوة وغيرها في سائر الزوايا والمساجد عبر الوطن[50].

وكانت الوثائق والمخطوطات، أكبر ضحايا الجيش الفرنسي، إذ أتلفت المخطوطات والوثائق في القصبة أمام أعين القائد دييرمون، وكان الجندي يشعل غليونه بالوثائق المبعثرة ذات الأهمية الكبرى، وكانوا لا يبالون بحرقها أو إتلافها، أو إرسالها ذكرى لأصحابهم في بلادهم، فكانت سياسة النهب والتخريب العلني واضحة للعيان. [51]

ولما استولى الجيش الفرنسي على زمالة الأمير عبد القادر، تم الاعتداء على مكتبته الثمينة، وكان بها أنفس الكتب وأندرها، فحطمت وأحرقت ومزقت، وشتتت، ومنها نحو خمسة آلاف مجلد مخطوط. وذكر الجنرال "آزان" واصفا الحالة بقوله:(كان الأمير يتنزى من الألم وهو يتتبع خطوات الفرنسيين نحو المدية

يلتقط الأوراق المتناثرة من كتبه الثمينة على طول الطريق الطويل. فقد كانت هذه المكتبة ثمرة تعب أجيال من التمحيص والجمع والنسخ) [52].

وقد عانى كذلك الأرشيف الجزائري الذي يرجع إلى العهد العثماني من الإهمال والتلف في العهد الفرنسي ما عانى أيضا، فقد تولاّه "ألبير ديفوكس" الذي لم يكن يعرف التركية، فاستخدم بعض المترجمين الجزائريين، واستفاد منه بعض الفائدة فيما يتعلق بالحياة الإدارية والعسكرية والأسطول والأرقاء والمداخيل، وظلّت الوثائق مهملة وعرضة للتلف[53].

والشيء المحفوظ من هذا التراث ما حمله المهاجرون الجزائريون معهم من بعض الكتب الثمينة الذين خرجوا من ديارهم مراغمين أو اختاروا الهجرة على العيش تحت وطأة الأجنبي، مثل ابن العنّابي ومصطفى الكبابطي، وقد هاجرت الكتب أيضا إلى فرنسا نفسها في أوقات مختلفة في حقائب الضبّاط والمترجمين والمستشرقين والعلماء واللصوص. ولذلك فإنّ من يبحث في تاريخ الجزائر في العهد الفرنسي سيجد مصادره مبعثرة في مكتبات العالم، ولا سيّما مكتبات الشرق والغرب والمكتبات الفرنسية العمومية والخصوصية[54].

ثالثا: هدم المؤسسات الثقافية

وهو الهدم المادي الملموس الذي يترك تلك المؤسسات أنقاضا هاوية، أو الهدم الإجرائي ويظهر من خلال الغلق أو التحويل إلى شؤون أخرى تخالف مهامها الأساسية، وتخالف الأعراف الإنسانية وفيها اعتداء على مقدسات المجتمع، وتركت أثرا سيئا في نفوس الجزائريين، وتولد في ذاتهم حب الانتقام، وروح المقاومة للظلم الذي استهدف هويتهم وقيمهم الحضارية. وتحدث حمدان خوجة عما فعله كلوزيل من اعتداء، بقوله: (ففي عهده نهبت الأموات في مدافنهم، وسمح بالاتجار بالعظام البشرية وبيعت حجارة المقابر... هناك من يرى أن الحكومة الفرنسية لم تسمح بانتهاك المقابر إلا لحقدها على ديننا)[55]. وسوف نتناول العناصر الخاصة بهدم المساجد، والمدارس، والزوايا، ومصادرة الأوقاف الإسلامية.

1- هدم المساجد: تعرّضت المؤسسات الإسلامية إلى ما تعرّضت إليه من هدم، رغم (عهود الشرف) التي أعطاها قادة الحملة إلى سكان الجزائر، إذ شرع الجنود الفرنسيون في الاعتداء على حرمات الناس وأملاكهم وعلى بيوت الله بكل أنواعها، لقد باشروا التخريب والنهب انطلاقا من كونهم المنتصرين وللمنتصر كما يقول المارشال كلوزيل (Clauzel) "حق التصرف كيفما شاء في ممتلكات المهزوم"، وهكذا وقع منذ الساعات الأولى على معظم المساجد والجوامع التي سرعان ما حوّلت إلى كنائس وإسطبلات، أو هدمت لكيلا تبقى صوامعها شامخة[56].

ويعتبر قرار 07 ديسمبر1830 من البوادر الأولى للاستعمار، بالتدخل في الشؤون الدينية للسكان، كما يعتبر من الخطوات الأولى لمحو التراث الإسلامي بالجزائر[57]، فكان أول مسجد وقع عليه الهدم بالكامل هو جامع السيدة، كان ذلك سنة 1830 [58]. وعندما اختار الفرنسيون أحد مساجد الجزائر لجعله كاتدرائية كاثوليكية اختاروا أوسعها وأحسنها موقعا وارتفاعا وأحدثها بناء، وهو جامع كتشاوة الذي بناه حسن باشا سنة 1794، وكثيرة هي المؤسسات الدينية والتعليمية التي مَسَّحَها (من المسيحية) الفرنسيون أو هدموها أو أعطوها إلى الجيش أو بيعت كأملاك للأوروبيين يتصرفون فيها[59]؛ فكل المساجد الإسلامية والمؤسسات الإسلامية أصبحت من ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصّة تفعل بها ما تشاء، فهدمت منها على هذه القاعدة ما هدمت، ثم هي "تَسمح" بإقامة شعائر دينهم في البقية الباقية منها، إنّما لا يقع ذلك إلاّ بواسطة موظفيها ورجالها، ومن ينتدبهم الاستعمار للقيام بها[60].

ويذكر "ديفوكس" في دراسة نقلا عن إحصاء الإدارة الفرنسية للأوقاف الإسلامية (مساجد، زوايا...) أنّه كان يوجد بمدينة الجزائر بعد الغزو 13مسجدا كبيرا، 109 مسجدا صغيرا، 32 مصلى، 12 زاوية، التي يصل مجموعها إلى 176 بناية إسلامية. في حين يذكر "فيرو" أنّ عدد المساجد بمدينة الجزائر في بداية الاحتلال وصل إلى 169مسجدا، ثلاثة منها حوّلت إلى كنائس، وبعضها الآخر حوّلت إلى مصالح عمومية عسكرية ومدنية[61]، وخصّص أربعون مسجدا وعدة معاهد لإسكان الجيش الفرنسي الذي كان يربوا على الخمسة عشر ألف، ولم يكتف الجيش المحتل بتسخير هذه المساجد والمساكن، بل شرع في تهديم البقية، تحت ستار إصلاح البلدة وتوسيع الشوارع[62].

وفي سنة 1862 نظرا للنهب والتخريب الذي تعرّضت له هذه المؤسسات من طرف الفرنسيين لم يبق قائما منها إلاّ 67 مؤسسة، (09) تسعة مساجد جامع ،19مسجدا، أمّا ما تبقى فهو عاطل عن العمل، وليس له أي وظيفة[63].

كما تعرّضت المؤسسات الدينية عبر مختلف المدن الجزائرية إلى نفس المصير، فقسنطينة كان بها مائة مسجد وقع الهدم على كثير منها، مسجد سيدي الوردة الذي هدم لإنشاء الساحة المعروفة باسم ساحة النمور، وهو لقب بن ملك فرنسا، ومسجد سيدي فرغان هدم لإقامة ساحة القصر... ومن بين مساجد قسنطينة التي حوّلها الفرنسيون إلى كنائس مسجد سوق الغزل الذي حوّله الفرنسيون إلى كنيسة بعد سنتين من احتلال المدينة، وكان الجامع من أجمل مساجد قسنطينة وأوسعها[64].

وفي إحصاء لمساجد قسنطينة التي تعرّضت للهدم يذكر اللواء قائد المقاطعة بقسنطينة في 07 فيفري 1866 أنّ 63 مؤسسة خصّت للمصالح العمومية أو هدمت، منها مسجد سيدي أفرج، ومسجد سيدي بوقصبة، ومسجد سيدي علي بن مخلوف وسيدي فركان[65]، ونفس المصير عرفته مدينة وهران التي تحوّلت مساجدها عن وظيفتها كمسجد خنق النطاح الذي حوّل إلى مستشفى سنة1831، أمّا مدينة عنابة فقد وصل عدد المساجد بها 37 مسجدا لم يبق منها سوى جامع صالح باي[66].

2- هدم المدارس (الكتاتيب): إن الفرق بين المساجد والمدارس قلّما نلاحظه، فمعظم المساجد تقوم بدور الكتاتيب التي تعلم الصبيان القرآن الكريم، بينما تتخذ المساجد الكبرى أو التي يملك أهلها قيمة مادية، ولهم قدرة على توظيف المعلمين، تلحق بالمساجد المدارس التي تعلم الصبيان القرآن، وتضيف إليها مبادئ العلوم الشرعية، والتي تتعدى إلى فئة الكبار والذين لهم نضج عقلي.

والثابت أن المدارس كانت منتشرة بكثرة في المدن بالخصوص، مثل مدينة الجزائر وتلمسان والمدية، وقسنطينة، وكلها كانت تعيش من أموال الأوقاف الإسلامية[67]. وقد اعترف الفرنسيون أنفسهم أن الجزائر كان بها عشية الاحتلال، ما يزيد عن ألفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعليا، وكان الأساتذة من ذوي الاختصاص والاجتهاد في تعليم الناشئة[68].

ولم تسلم تلك المدارس من الهدم الذي أصاب المساجد، وذلك بالتبعية لها. وبعض هذه المدارس كانت مشهورة بالعلم مثل مدرسة القشاش كان مصيرها مصير الجامع التابعة له، ولنذكر فقط نماذج من هذه المدارس التي هدمت أو بيعت أو أعطيت إلى مصالح أخرى، فمدرسة الجامع الكبير حوّلها الفرنسيون إلى حمّام فرنسي، كما هدمت مدرسة الأندلس ومدرسة جامع السيدة مريم، ومدرسة جامع السلطان ومدرسة جامع خير الدين، ومدرسة جامع سيدي عبد الرحمان الثعالبي[69]. وقد اعترف الوالي العام للجزائر خلال الثلاثينيات الدوق دومال، في تقريره إلى حكومة دولته، مفتخرا بما فعل دون خجل أو شعور بالذنب: (قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين أو ثكنات، أو مرابط للخيل

واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد) [70]. كل هذه المؤسسات تعرّضت للهدم والتدنيس وتحويلها عن وظائفها ، ولم يكتف ضبّاط الحملة عند ذلك بل امتدت أيديهم إلى الزوايا.

3- هدم الزوايا: عرفت الزوايا المصير الذي آلت إليه مختلف المؤسسات الإسلامية الأخرى من تهديم وتحويل إلى مراكز إدارية وكنسية، هذه الزوايا التي كان لها دورها الديني والاجتماعي والثقافي والسياسي. وفي المقابل لها رسالة نبيلة، وعمل شريف يتمثّل في المحافظة على الإسلام والعربية في هذه الديار، والعناية بدراسة العلوم الإسلامية واللغوية، بالإضافة إلى ما تقوم به من خدمات اجتماعية، كإطعام الفقراء والمساكين وابن السبيل، ومساعدة المحتاجين، وإصلاح ذات البين، وغيرها من الخدمات المختلفة[71]، حيث عبّرت المؤرّخة الفرنسية "ايفون تيران" عن الدور الهام المنوط بالزوايا بقولها:" إنّها مراكز دينية وثقافية، ومدارس للكبار والصغار، ودُور للمعالجة والتداوي وإسعاف الفقراء، وملتقى لذوي الرأي، ونقاط ينطلق منها الجهاد، ولا يُعرف لها مثيل في أوروبا..."[72].

ومن الزوايا المتأثرة بالهدم أو البيع أو الحيازة من قبل المصالح الأخرى بمدينة الجزائر، نذكر زاوية القشاش هدمت، وزاوية سيدي الجودي بيعت لأحد الأوروبيين، وزاوية الشبارلية التي أعطيت للدرك الوطني سنة 1830، وزاوية شختون التي حوّلت إلى ثكنة ثم مستشفى عسكري، وزاوية الصباغين والمقايسة التي هدمت مع الجامع. أمّا بجاية فقد هدمت فيها زاوية سيدي التواتي، وزاوية لالة فاطمة التي تحوّلت إلى مبيت للحرس، وزاوية سيدي أحمد النجار التي أصبحت ثكنة وغيرها كثير[73]. كما هدمت زاوية الحاج عمر الرحمانية بزواوة على يد الجنرال ديفو، واضطر شيخها إلى الهجرة إلى تونس ثم إلى الحجاز بأهله ومعه ولد الشيخ بوبغلة، ولكن ذلك زاد في انتشار الطريقة عكس ما توقعه الفرنسيون[74].

أمّا عن زوايا قسنطينة منها زاوية لأكبر العائلات عندئذ مثل زاوية الفكّون، وزاوية ابن باديس، وَزاوية ابن نعمون، فكان مصير تلك الزوايا أثناء عملية هدم دار أحمد باي وما حولها اختفت أو حوّلت عن غرضها[75].

4- مصادرة الأوقاف الإسلامية: كانت الأوقاف موجودة في الجزائر، كما كانت في بقية البلاد الإسلامية، وهي نظام الحبس، من مال، أو أرض ونحو ذلك، تُصرف منفعته على الفقراء وخدمة التعليم ونشر الثقافة، وقد لعبت دورا معتبرا في العهد العثماني، ولم تكن هذه الأوقاف مرصدة للعلم وحده، وإنّما كانت لوجه الله، وللسّائل والمحروم، حيث إنّ خمسة أعشار الأراضي الزراعية في الجزائر كانت أوقافا، وأنّ فرنسا حينما صادرت هذه الأوقاف بسطت يدها على الدين الإسلامي[76]، وأنواع الوقف التي كانت موجودة عند الاحتلال على فرعين، أوقاف عامة وأوقاف خاصة، أمّا الأوقاف العامة هي: أوقاف بيت المال، أوقاف الطرقات، أوقاف العيون (المياه)، أوقاف الأندلس، أوقاف الأشراف، أوقاف مكة والمدينة، أوقاف سبل الخيرات. أمّا الخاصة فهي: أوقاف الشيخ الثعالبي، أوقاف الجامع الكبير، أوقاف مختلف المساجد والزوايا والقباب والأضرحة [77].

ولا شك أنّ تصفية الأملاك في وقت مبكر من الاستعمار الفرنسي في الجزائر دليل واضح على روح التعصب الديني الذي كان يحمله القادة الفرنسيون ضد الإسلام والمسلمين، ودليل على أنّ السلطات الفرنسية قد خطّطت مسبقا على الاعتداء على الديانة الإسلامية والدولة الإسلامية بالجزائر[78]، وكان الاستعمار يسير على خطّة مرسومة فيبدأ في سرقة الأرض، ويضع اليد عليها باسم القانون، ويضفي على هذه السرقة ستارا مظلما يضمن حقوق المالك الجديد، وكان هَمُّ المشرِّعين من ملكيين وجمهوريين هو العمل على ضم

الأملاك العامة والأراضي الجماعية إلى أملاك الدولة الفرنسية ليوزعوها بعد ذلك على المعمرين أو يبيعوها للأفراد بموجب صكوك وعقود تجعل لهذا البيع الصفة القانونية[79].

وبمقتضى قرار 07 ديسمبر 1830 أصبحت كل الأوقاف ملكا للدولة الفرنسية[80]، وصدرت عدة قرارات تعسفية تحارب نظام الأوقاف الإسلامية من أخطرها قانون 23 مارس 1843 بإلحاق المداخيل المالية للمؤسسات الوقفية إلى الميزانية الاستعمارية، كما أصبحت جزءا من مواردها في كل سنة مالية، كما صدر قرار آخرا كان أكثر خطورة على نظام الأوقاف بذاته في 04 أكتوبر1844، الذي نص على رفع المناعة والحصانة على الوقف، وبالتالي أصبح القانون الفرنسي هو الذي يتحكّم في عملية انتقال الأراضي من الجزائريين إلى الأوروبيين[81].

وقد شمل اغتصاب الأملاك الوقفية في بداية الاحتلال الأملاك الحضرية بصفة خاصة، إلى أن تمّ إصدار القرار المشيخي سنة 1963 الذي نص على اغتصاب ما تبقى من الأملاك الوقفية الريفية، الأمر الذي أدّى إلى فقدان معظم الأوقاف في الجزائر[82].

أمّا عن القباب والأضرحة فهي بنايات ذات طابع ديني وعمراني حضاري، وكَوْن أوقافها اغتصبتها السلطة الفرنسية، وهي من أموال المسلمين[83]، ويذكر "غاستون كوفي" (Gaston Cauvet) أنّ الكثير منها تعرض للهدم خاصة في مدينة الجزائر، والتي عَملت المضاربة العقارية على اختفائها، وتعويضها بعمارات قبيحة بلا طابع مميز، وهكذا هدّمت معالم دايات الجزائر الجنائزية التي احتفظت لنا بها الصور الفوتوغرافية واللّوحات الفنية، وكذلك ضريح سيدي بالنور، كان هذا الضريح على رُبوة بوزريعة في المكان الذي تحتله سرية المدفعية التي تحمل اسمه وحُوّل بسبب تشييد هذه البناية العسكرية، يُفترض أنّ مصلحة الهندسة العسكرية كلّفت بعض العمّال المغاربة لإعادة بنائه[84].

واعتبر قادة الاحتلال أن ما أوقعوه من خراب متعمد، هو صميم العمل الوطني، كما ذكر بيجو قائلا: (لقد حرقنا كثيراً، وخربنا كثيراً، ومن الممكن أن أوصف بالبربرية، ولكن ما دمت مقتنعاً بأني قد أديت عملاً مفيداً لوطني، فإني أعتبر نفسي فوق ملامة الصحافة) [85].

والجدير بالتنويه أن الأوقاف الإسلامية هي القلب النابض للمؤسسات الثقافية والدينية، وأن مصادرة أملاكها مثّل ضربة كبرى لتلك المؤسسات، ولاسيما المساجد والمدارس، وتحولت إلى عتاة الاستعمار، يتصرفون فيها بعبث شديد، ويعملون على تدجين الأعوان الموظفين من قبلهم لتسييرها، لأنهم يخضعون لأجرة تتحكم فيها الإدارة الفرنسية. ولا شك أن ردود الفعل سجلت بقدر الجهود المتوفرة للجزائريين.

رابعا: مقاومة الجزائريين للسياسة الفرنسية:

يعتقد بعض الدارسين أن الحركة الوطنية الجزائرية ولدت في بداية القرن العشرين، وذلك اعتقاد تبطله الدلائل التاريخية، وأساليب القمع الفرنسية. لأن الروح الوطنية كانت راسخة في نفوس الجزائريين، الذين تشبعوا بالإسلام، ولم يرضوا بديلا عن مقاصده وأحكامه، وما قام عليه الدين من قرآن وسنة ولغة عربية أصيلة، ولم يرضوا بسلوك الفرنسيين ضد ثقافتهم وقيمهم، وواجهوا ذلك ماديا بالسلاح، أو سياسيا باتخاذ المواقف الرافضة، أو المقاطعة العلنية، أو التصدي لآلة الهدم، دون خوف من الموت الذي هو استشهاد في سبيل الله، ويمكن استعراض بعض صور المقاومة الثقافية:

1- المقاومة الشعبية المسلحة: لقد استهدفت الهجمة الفرنسية من أول وهلة الدين الإسلامي المقدس لدى الجزائريين، وخاضوا حربا صليبية معلنة، باركتها الكنيسة في فرنسا وأوروبا. كما كانت المعاملات الفرنسية مع السكان، تستفز مشاعرهم، وتحارب قيمهم الثقافية الوطنية. [86] وهذا ما جعلهم يرفعون لواء

الجهاد عاليا، كرد فعل طبيعي لا يختلف فيه اثنان، وقاد المعركة المسلحة، المرابطون والعلماء، حراس الدين والعقيدة، وكانوا يعتبرون الاستشهاد هو السبيل نحو الحرية. وكانت الطرق الصوفية عامل تجميع للمقاومين، بداية من مقاومة الأمير عبد القادر، والشيخ بوزيان في الزعاطشة، والشيخ الحداد والإخوان الرحمانيين، وأولاد سيدي الشيخ، والشريف محمد بن عبد الله ومحمد التومي بوشوشة، والشريف محمد الأمجد بوبغلة، ولالة فاطمة انسومر، وغيرهم كثير. وكلهم رفعوا راية الجهاد، بعد تهديم زواياهم، وإغلاق مدارسهم، والاعتداء على مساجدهم، وانتهاك حرماتهم.

2- التصدي لتحويل المساجد: كان تحويل المساجد غصة في حياة المجتمع الجزائري، وتوالت احتجاجاتهم، وقاد المسيرة أعيان الجزائر وعلمائها، وأسمعوا صوتهم في عهد ديبرمون، ويذكر حمدان خوجة الذي كان عضوا في مجلس بلديتها عندما طلب من رئيسها تحويل عدد من المساجد إلى مستشفيات للجيش لأن الضرورة تقتضي ذلك، فكانت الإجابة من المجلس: (إن تلك الأماكن معدة لأمور لا نستطيع تغييرها وعليه لن نوافقه بمحض إرادتنا، ولكنه إذا أراد استعمال القوة للاستيلاء عليها فإننا نكون عاجزين عن منعه. وبعد قليل من المحادثات رفضت ملاحظاتنا ووقع الاستيلاء ظلما على المساجد) [87]. وأضاف خوجة أن ذلك لا يمنع السكان من الاحتجاج على الفرنسيين عند انتهاك حرمات مساجدهم: (... وبما أن وثيقة الاستسلام تعترف باحترام المساجد وتتعهد بضمان ذلك، فان سكان مدينة الجزائر لن يتوقفوا عن الاحتجاج ضد هذه الانتهاكات)[88]. وكان الإصرار كبيرًا، ومما أكده خوجة أيضا: (وفي أثناء ولاية كلوزيل على الجزائر، لم يكن يستمع لأي شكوى، ولقد كان الفقهاء يريدون تقديم الاحتجاجات باسم أبناء وطنهم ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ذلك، وكلما قدمنا اعتراضاً أُجبنا عليه بعمل أكثر ظلماً وتعسفاً، ومن ثمة وجب السكوت والصبر) [89].

ولكن الصبر ينفد، عندما يستفز المسلم في دينه، وهذا ما وقع عندما شرع الدوق دي روفيقو يوم 1831/12/17 باحتلال مسجد كتشاوة، ونصب الصليب فوق صومعته على أنغام التحية العسكرية، وحوله إلى كنيسة كاثوليكية. وفي اليوم الموالي تجمع بداخله نحو أربعة آلاف مسلم، يرفضون التحويل، فاقتحمه الجيش واستولى عليه، وأثخن قتلا في المعتصمين به، وسالت دماؤهم في الساحة المجاورة للمسجد، والتي أخذت من ذلك اليوم اسم ساحة الشهداء[90]، وبقيت شاهدة على الحقد الاستعماري.

وصور الشاعر الفقيه محمد بن الشاهد ما وقع للجزائر[91]، بكل مرارة، وهو صوت موجه للجزائر:

لبست سوادَ الحزن بعد مسرة * وعمَّتْ بواديك الفتونُ بلا حصر

رفضت بياضَ الحق يوما * نواحيك تشكو بالأماني إلى الجور

وثُلِّم دَرسُ العلم والجهلُ * ونادى بتعطيل العلوم على

وناْح عُلى الأسواق طيرُ خرابها * فأصبح فأس الهدم ينبئُ بالغدر

أموت وما تدري البواكي * وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر

3- رفض سياسة التنصير: وقد سجل الجزائريون مواقف نبيلة في الرفض للسياسة الظالمة، وقصة تنصير عائشة بنت محمد، التي طلقها زوجها عام 1834، فلم تلتزم بعدتها الشرعية واختارت النصرانية لأنها كانت على علاقة غير شرعية بأحد الأوربيين ويدعى بيليسه دي رينو، وقام أهلها بالاحتجاج وتقديم شكوى للقاضي عبد العزيز والمفتي مصطفى بن الكبابطي، فجاء بها القاضي للمحكمة، ولما دخل صاحبها الأوربي، خرج القاضي محتجا على انتهاك حرمة المحكمة، وخرج معه المفتي، ثم قدما استقالتهما للحاكم

العام. وتبع ذلك قيام مظاهرات شعبية ومحاكمات واحتجاجات في الجزائر العاصمة. ولكن بيليسه أخذها إلى أحد القساوسة الكاثوليك في الكنيسة وقام بتعميدها، ثم هربت إلى فرنسا متحدين الأهل والمجتمع الجزائري[92]. وهذا كشف عن الروح الدينية القوية لدى الجزائريين، ويمكن الوقوف عند حوادث كثيرة من هذا النوع، ولكن اليد الحديدية الفرنسية كانت أقوى، والأيام أجبرتها على الانحناء.

4- مقاومة التعليم الفرنسي: يمثل التعليم عند الجزائريين معلما مقدسا، وكل برامجَ جديدة من المستعمر يعتبر عندهم خروجا عن الدين وكفر برب العالمين، ومنذ قرار بيجو يوم 23 مارس 1943، الذي صادر الأوقاف المدعمة للتعليم والمؤسسات الدينية، كان رد الفعل من المجتمع رفضا تاما، ومثل ذلك أول صدام ثقافي (ديني ولغوي) مع الفرنسيين، الذين استمروا في سياستهم، عندما أرادوا فرض اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية، بإرسال معلم فرنسي كل يوم، ولمدة ساعة يقدم حصة في الفرنسية والرياضيات؛ فرأى الناس فيها محاربة صريحة للغة العربية. ولم تقدم مباشرة على الأمر، بل فوضت مفتي المالكة مصطفى بن الكبابطي ليكون واسطة لهم مع الأهالي، وبقي يماطل في الرد، واحتار الأهالي، ولكن المفتي دبر لهم حيلة، وهي القبول بالأمر، ويأمروا أبنائهم بالانسحاب عند حضور المعلم الفرنسي، وتم لهم ما أرادوا، ولكن الفرنسيين كشفوا الأمر عن طريق الوشاية، فعزلوا المفتي وسجنوه ثم نفوه خارج البلاد[93].

وكانت المواقف الشعبية السلمية والعنيفة على حد سواء، دالة على مدى تمسك الجزائريين بدينهم وعقيدتهم، ورفع لواء المقاومة الثقافية عاليا، والدفاع عن المقدسات. وكانت فصول المقاومات الشعبية خلال القرن التاسع عشر معبرة عن ردود الأفعال التي تستهدف الدفاع عن القيم والمبادئ، قبل الدفاع عن الجوانب المادية، وكشفت عن سياسة فرنسا المسلطة على الشعب الجزائري، ومحاولة محو شخصيته العربية الإسلامية.

خاتمة:

اتضح من هذه الدراسة العلمية لموضوع المقومات الثقافية الجزائرية، بعد الاحتلال الفرنسي، كيف استهدف عتاة المحتلين عقيدة الشعب الجزائري وهويته ودينه، بدافع العدوان، متنكرين للأعراف الإنسانية، والعهود والمواثيق التي أبرموها عند تسليم الداي حسين لمدينة الجزائر. بل بعد يوم واحد فقط، خالفوها برفع الصليب وترتيل الإنجيل، والإعلان عن استرجاع الجزائر إلى أحضان المسيحية في إفريقيا.

وقد أثبتت الأيام المتوالية كيف تحول سعيهم إلى استراتيجية وفق منهجية مضبوطة، ولاسيما بعد تصميمهم على الاحتفاظ بالجزائر- منذ عام 1848 في عهد الجمهورية الثانية - كجزء لا يتجزأ من فرنسا، وكانت فترة الماريشال بيجو أكثر حدة، باتباع سياسة الأرض المحروقة، والاعتداء على القيم والمبادئ.

أما السياسة المنفذة عن طريق الحرب الشعواء، فقد خلفت آثارها السيئة والخطيرة على المجتمع الجزائري، والذي مازال يتجرع آلامها إلى اليوم، ومن نتائج تلك السياسة:

- كان الدين في نظرهم يمثل عقبة كأداء وصخرة صماء عاتية، تواجههم عند كل منعطف، وهو الوقود الذي حرك أبناء البلاد، ودفعهم إلى الجهاد لحماية الدين وتحرير البلاد، ولو كان بعده الاستشهاد بشرف. فكان التركيز عليه بإعلان حملة التنصير، وبذل إمكانيات معتبرة لتحويل الجزائريين عن دينهم، واستعمال المال والإغراء، واستطاعوا التشويش فقط في هذه المرحلة، وكانت منطلقا لما بعدها وهي المرحلة التي أشرف عليها الكاردينال لافيجري.
- استطاع الفرنسيون - باستعمال القوة - استقطاب فئة من الشباب، الذين نقلوا إلى فرنسا، وفرض عليهم تعلم اللغة والثقافة الفرنسية، وتم دمجهم بعد ذلك في المجتمع الجزائري لتقديم النموذج المتحضر، وتحويلهم

إلى أعوان مخلصين لخدمة السياسة الفرنسية، وتذليل الصعوبات للسكان، والشفاعة لهم عند الفرنسيين، وتم ذلك عند فئة محددة، ولكنهم لم يتنكروا لمعتقداتهم الأصيلة.

- كان الاعتداء على مؤسسة القضاء الإسلامي، تدخلا سافراً في الشؤون الخاصة للجزائريين، والتي تقوم على المبادئ الشرعية أكثر مما تقوم على الأحكام الوضعية.
- حاربت فرنسا اللغة العربية حربا صامتة، باعتبارها لغة القرآن، وضيقت عليها الخناق في المساجد والكتاتيب القرآنية، وسمح لها بقدر محدود، بما يخدم سياسة الاستعمار في التفاهم داخل المحاكم بالخصوص، ومن أجل ذر الرماد في العيون، ولكن اللغة تضررت لما ضاعت مؤسساتها، ونفي شيوخها وأساتذتها وشردوا أو قتلوا. وفي المقابل فسح المجال للغة الفرنسية التي نشروها على نطاق واسع، وشجعوا على تعليمها واستعمالها في الإدارة، وكتابة اللوائح والعرائض في القضاء، وأرادوها أن تنافس العربية في الكتاتيب، حتى يرضى الناس بالأمر الواقع، ولكنهم جوبهوا بالرفض الذي جعل الفرنسية محدودة الانتشار في هذه الفترة.
- أما التراث المدون والمخطوط ولاسيما الذي كتب بأقلام الجزائريين، وعبر عن فكرهم، فقد أصيب بالهوان، فنهبت المخطوطات المختلفة، ودخلت سوق المتاجرة، وسرقت من أصحابها، فضاع تراث زاخر دون رقيب أو مدافع.

واقتضت الاستراتيجية الفرنسية، الاعتداء على المؤسسات الحامية لقيم المجتمع وثقافته، والتي تعرضت للهدم والنهب والتحويل:

- أما المساجد فقد نكبت، وأصابها دمار كبير، وهوان منقطع النظير، والسبب في تنفيذ ذلك انتقاما منها، لأنها تصنع الوعي لدى السكان، وتربطهم بدينهم الذي يدفعهم للمقاومة المستمرة من أجل النصر أو الاستشهاد، بالحب والتفاني، يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا.
- تهديم وإغلاق العدد المعتبر من المدارس والكتاتيب والمعاهد العلمية، وما بقي منها اعتراه التضييق، بإبعاد الأساتذة والمعلمين، وسبب استهدافها، لأنها ترسخ العلوم الشرعية لدى الجزائريين، وتصنع جيلا متشبعا بالقيم التي جعلت الجزائري متميزا وحريصا على التحرر من ربقة الاستعمار، ويسعى دوما لخدمة وطنه وشعبه.
- وكانت الزوايا محاضن الطرق الصوفية، والتي اختلفت مواقفها من الاستعمار، إلا أن أغلبها رفع راية الجهاد والمقاومة الثقافية في هذه المرحلة العصيبة، الأمر الذي عرض بعضها للهدم والإبادة والتشريد لأتباعها ومريديها.
- أما الأوقاف الإسلامية، والتي كانت مرتكز المؤسسات، وروحها النابض بالحياة، والتي مسها القصف الشديد، بالمصادرة، والنهب، والتسيير المجحف من قبل الإدارة الاستعمارية، والتي بواسطة عملائها، وموظفيها من الجزائريين، وكانوا يشعرون رجال المؤسسات بفضل فرنسا في تقديم الأجرة والمساعدات. والحقيقة أنها أموالهم المغصوبة، والتي استعملت مداخيلها في تنمية مشاريع المستعمر، ولم تستفد المؤسسات الدينية إلا النزر اليسير.

ورغم كل الإجراءات الظالمة، والسياسة المدمرة، لم تنهزم عزيمة الجزائريين، والذين واجهوا تلك الهجمة الشرسة، وسجلوا مواقف رافضة لتحويل بعض المساجد والمدارس، وقاوموا سياسة التنصير باحتضان أبنائهم، ورفضوا القبول بتدريس الفرنسية في كتاتيبهم واعتبروها مخالفة للعقيدة الصحيحة. ولكن المرحلة الموالية في عهد الجمهورية الثالثة - بعد 1870 - كانت أكثر شراسة، لتمكن الفرنسيين وانتشارهم

في المناطق الوسطى والجنوبية، واطلاعهم على الخفي من المعلومات. ولكن الصمود ظل مستمرا إلى أن تحررت الجزائر، ولكن آثار سياستها التي بدأت في الثلاثينيات ضد هوية الأمة الجزائرية مازالت بعض آثارها ماثلة إلى اليوم، وتحتاج إلى المزيد من العمل والنضال.

ـ قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

ـ أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، مطبعة الكتاب الشريف، 1948.

ـ (ـــــ)، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.

ـ أحمد رمزي، الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، المطبعة النموذجية، القاهرة، ب ت.

ـ أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء حول الثقافة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1993.

ـ أحمد عوف، أحوال مصر من كل عصر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ب ت ط.

ـ احميدة عميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844- 1916، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين امليلة، الجزائر، 2009.

ـ أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط2 1983.

ـ بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، دار المعرفة، الجزائر،2006، ج1.

ـ تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

ـ حمدان خوجة، المـــرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

ـ خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1870)، منشورات دحلب، الجزائر،1977.

ـ مارسيل أجريتو، الوطن الجزائري، تر: عبد الله نوار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ب ت ط،

ـ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، بدران وشركاه، بيروت،1964، ج3.

ـ محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري بالجزائر من 1830إلى 1904 - دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر1997.

ـ محمد العربي الزبيري: مقاومة الحاج أحمد باي واستمرارية الدولة الجزائرية، دار الحكمة، ط1، الجزائر.

ـ مراد مزعاش، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة اللغة العربية في الجزائر 1931-1954، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر،2018.

ـ مصطفى خالدي، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1953.

ـ مصطفى الأشرف، الجزائر- الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

ـ موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.

ـ صالح فركوس، الوجيز في تاريخ الثقافة الجزائرية، المعارف للطباعة، ب ب، ب ت ن.

ـ صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، لبنان، 2002.

ـ عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، موفم للنشر، الجزائر ،2009.

ـ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام 1800-1900، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994.

ـ عبد الفتاح إسماعيل غراب، العمل التنصيري في العالم العربي، مكتبة البدر، ب ب، 2007.

ـ علي غنابزية، دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية، ج2، مطبعة مزوار، الوادي الجزائر، ط1، 2012.

ـ عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847-1918)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2007.

ـ عمر العرباوي، الاعتصام بالإسلام، مطبعة اللغتين، ط1، الجزائر، 1982.

ـ غاستون كوفي، أضرحة الأولياء معالم جنائزية ونذرية في شمال إفريقيا تر: عبد القادر ميهي، دار الثقافة الوادي، ط1، 2018.

- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر (1837.1937)، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1990، ج1.
- (ـــــ،ـــــ)، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر،2011، ج5، ج6.
- (ـــــ،ـــــ)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،1998، ط1،ج6.
- (ـــــ،ـــــ)، الحركة الوطنية 1830-1900 ، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت، 1992.
- (ـــــ،ـــــ)، خلاصة تاريخ الجزائر، المقاومة والتحرير،1830-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- (ـــــ،ـــــ)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982.
- الشريف الزهار، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية ،2007.
-Dumas, Mœurs et coutumes de L'Algérie tell Kabylie Sahara. Librairie de L. Hachette et Paris1853.
- Dumas et Fabre, La Grande kabyle, études historiques. Chez tout les libraires d'Algèrie.1847.

الرسائل والدراسات:

- حميد قريتلي، البعد الديني في السياسة الفرنسية في الجزائر 1830- 1907، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف الدكتور الغالي غربي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2010/2009.
- محمد زاهي، الأوقاف في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (1830-1870)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور حنيفي هلايلي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس،2015/2014.
- العكروت خميلي، جامعة الجزائر بين الأهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين (الجزائريين) 1909 – 1956، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف أ.د/ مولود عويمر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر 2008، 2009.

المجلات:

- المهدي البوعبدلي، "الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومقاومة الشعب في الميدان الروحي" في مجلة الأصالة، س 2، ع 8، ماي جوان، 1970.
- شاوش حباسي، " من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر" – في – مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد 10، 1997.

المواقع الإلكترونية:

- فريد حاجي، فرنسا الاستعمارية والانشغال بالمسألة اللغوية في الجزائر، بوابة الشروق، 2014/8/18، تم الاطلاع 2020/7/12، الرابط: https://www.echoroukonline.com/

الهوامش:

[1]- أحمد عوف، أحوال مصر من كل عصر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ب ت ط، ص 99.
[2]- نفسه، ص ص 103-104.
[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1990، ج1، ص 274.
[4]- الشريف الزهار، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 177.
[5]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982، ص46.
[6]- شاوش حباسي، "من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد 10، 1997، ص73-74.
[7]- موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص132.

[8]- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص ص 60-62.
[9]- أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء حول الثقافة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1993، ص126.
[10]- أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط2 ،1983، ص ص 232، 233.
[11]- مراد مزعاش، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة اللغة العربية في الجزائر 1931-1954، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر،2018، ص18.
[12]- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، بدران وشركاه، بيروت،1964، ج3، ص317.
[13]- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر (1837.1937)، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 316 -317.
[14]- خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1870)، منشورات دحلب، الجزائر،1977، ص20.
[15]- مصطفى خالدي، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1953، ص217.
[16]- حميد قريتلي، البعد الديني في السياسة الفرنسية في الجزائر 1830- 1907، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف الدكتور الغالي غربي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2010/2009، ص ص37-38.
[17]- احميدة عميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844- 1916، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص105.
[18]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ج6، ص 108.
[19]- عبد الفتاح إسماعيل غراب، العمل التنصيري في العالم العربي، مكتبة البدر، ب ب، 2007، ص 91.
[20]- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص46.
[21]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 116.
[22]- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص65.
[23]- محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري بالجزائر من 1830إلى 1904 - دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر1997، ص57.
[24]- نفس المرجع، ص ص57، 58.
[25]- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص ص 110- 111.
[26]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت ،1998، ج6، ص ص 204-207.
[27]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص ص 320-321.
[28]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص ص 373-374.
[29]- بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، دار المعرفة، الجزائر،2006، ج1، ص145.
[30]- نفس المرجع، ص145.
[31]- أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، مطبعة الكتاب الشريف، 1948، ص86.
[32]- نفس المرجع، ص86.
[33]- أبو القاسم سعدالله، خلاصة تاريخ الجزائر، المقاومة والتحرير،1830-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص213.
[34]- حميد قريتلي، المرجع السابق، ص ص 37-38.
[35]- Dumas, Mœurs et coutumes de L'Algérie tell Kabylie Sahara. Librairie de L. Hachette et Paris1853 , P198.
[36]- أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 420.

[37]- يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص18.

[38]- فريد حاجي، فرنسا الاستعمارية والانشغال بالمسألة اللغوية في الجزائر، بوابة الشروق، 2014/8/18، تم الاطلاع 2020/7/12، الرابط: https://www.echoroukonline.com/

[39] - Dumas et Fabre, La Grande kabyle, études historiques. Chez tout les libraires d'Algèrie.1847, p 67.

[40]- صالح فركوس، الوجيز في تاريخ الثقافة الجزائرية، المعارف للطباعة، ب ب، ب ت ن، ص 232.

[41]- مصطفى الأشرف، الجزائر- الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 429.

[42]- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر، ص ص 353 -354.

[43]- العكروت خميلي، جامعة الجزائر بين الأهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين (الجزائريين) 1909 – 1956، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف أ.د/ مولود عويمر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر 2008، 2009، ص 25.

[44]- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر، ص ص 353، 354.

[45]- علي غنابزية، دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية، ج2، مطبعة مزوار، الوادي الجزائر، ط1، 2012، ص33.

[46]- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 92.

[47]- عمر العرباوي، الاعتصام بالإسلام، مطبعة اللغتين، ط1، الجزائر، 1982، ص 70.

[48]- حمدان خوجة، المـــرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص277.

[49]- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج5، عالم المعرفة، الجزائر،2011، ص148.

[50]- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام 1800-1900، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ص538.

[51]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1830-1900، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ص89.

[52]- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج4, ص193.

[53]- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص331.

[54]- نفس المرجع، ص ص،329،330.

[55]- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 292.

[56]- محمد العربي الزبيري: مقاومة الحاج أحمد باي واستمرارية الدولة الجزائرية، دار الحكمة، ط1، الجزائر، 2015 ص220.

[57]- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 28.

[58]- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص10.

[59]- أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية،1830-1900، ص ص80 ،81.

[60]- أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص ص147 -148.

[61]- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص11-12. حميد قريتلي، المرجع السابق، ص306.

[62]- المهدي البوعبدلي، " الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومقاومة الشعب في الميدان الروحي"، مجلة الأصالة، س 2، ع 8، ماي جوان، 1970، ص306.

[63]- عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847-1918)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 174.

[64]- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص ص83،82.

[65]- A,O,M,16H ، نقلا عن عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، موفم للنشر، الجزائر، 2009، ص255.
[66]- حميد قريتلي، المرجع السابق، ص ص 23، 24.
[67]- مبارك الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 317.
[68]- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 535.
[69]- أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المرجع السابق، ص ص 84 ،85.
[70]- تركي رابح، التعليم القومي، ص 125.
[71]- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، لبنان، 2002، ص31.
[72]- حميد قريتلي، المرجع السابق، ص28.
[73]- أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المرجع السابق، ص ص87.
[74]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص ص 143-144.
[75]- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص148.
[76]- أحمد رمزي، الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، المطبعة النموذجية، القاهرة، ب ت ط، ص 146.
[77]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص ص 152، 153.
[78]- محمد زاهي، الأوقاف في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (1830-1870)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور حنيفي هلايلي، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس،2015/2014، ص355.
[79]- مارسيل أجريتو، الوطن الجزائري، تر: عبد الله نوار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ب ت ط، ص ص 48،49.
[80]- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 24.
[81]- محمد زاهي، المرجع السابق، ص 357.
[82]- نفس المرجع، ص358.
[83]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص126.
[84]- غاستون كوفي، أضرحة الأولياء معالم جنائزية ونذرية في شمال إفريقيا تر: عبد القادر ميهي، دار الثقافة الوادي، ط1، 2018، ص ص38 ،39.
[85]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المرجع السابق، ص ص45-46.
[86]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، المرجع السابق، ص 16.
[87]- حمدان خوجة، المرآة، ص ص 280-281.
[88]- نفسه، ص 281.
[89]- نفسه، ص 293.
[90]- شاوش حباسي، المرجع السابق، ص ص 73-74.
[91]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المرجع السابق، ص ص 88-89.
[92]- نفسه، ص ص 81-82.
[93]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج2، المرجع السابق، ص ص 12-23.